



ندوة

﴿ الجوانب الاقتصادية في حياة الأنبياء عليهم السلام ﴾

يوم السبت ٢٠ صفر ١٤٢٥هـ الموافق ١٠ أبريل ٢٠٠٤م

السلوك الاقتصادي في حياة نبي الله إبراهيم عليه السلام

إعداد

الدكتورة/ هدى درويش

مدرس الأديان المقارنة
جامعة الزقازيق

مدينة نصر - القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون ٤٠٣٧٥١٤ - ٢٦١٠٣٠٨ - ٢٦١٠٣١١ - ٢٦١٠٣١٢ تليفاكس

Nasr City, Cairo, Egypt, Tel.: 4037514-2610308 - 2610311, TelFax: No. 2610312

www.SAKC.gq.nu

E-mail: salehkamel@yahoo.com

المقدمة:

الحمد لله نحمد، ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه .. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ... أما بعد

تمر الأمم كافة، والأمة العربية خاصة، بظروف اقتصادية، هذه الأيام تدعونا للتفكير والتدبر والنظر إلى ما كانت عليه الأمم السابقة .. كيف كانت معاشها ؟ وكيف كان اقتصادها؟ وكيف استطاعت على الرغم من افتقارها إلى أساليب الحياة الحديثة والتكنولوجيا التي نمتلكها الآن. أن تغلب على مشاكلها الاقتصادية؟..

ولقد رأيت أن أفكر في حال هذه الأمم، وأتدبر ما كانوا عليه من فطرة سليمة استطاعوا من خلالها أن يتغلبوا على الصعاب، وأن يقضوا على الفجوة بين احتياجاتهم المتعددة الكثيرة وموارهم الاقتصادية وهو ما يعرف بالندرة النسبية حتى استطاعوا أن يخلقوا حضارات امتدت وبقيت، سنين عديدة ودهوراً مديدة...

ولعلنا إذا ما ابغينا إلى ذلك سبيلاً أن نختص بدراسة أحوال الأنبياء خاصة، لما كان عليهم من تكاليف وأعباء الدعوة إلى الله، وبناء الأمم على أصول وقيم وفضائل سامية. كيف استطاع هؤلاء الأنبياء أن يؤدوا هذه الأمانة - أمانة الدعوة - في ظروف اقتصادية تكاد تكون مستحيلة بمقاييس اقتصادي العصر الحالي - عصر التكنولوجيا والصناعة - وكيف استطاعوا - عليهم السلام - أن يقيموا حضارات وأن ينشروا دعوتهم وسط أقوام وقبائل قد بلغ بعضها أكثر مما كان لدى هؤلاء الأنبياء من قوة وعدد وعتاد ونفوذ - هذا وقد وفر الله سبحانه وتعالى الأسباب لاستمرار هذه الأمم وأنزل الأنبياء للأخذ بزمامها ليقيموا العدل على الأرض كسياسة والتكيف مع البيئة المحيطة وما وفرت له من أسباب الحياة وعواملها كالاقتصاد، وذلك ما فعله أنبياء الله لأممهم.

وقد اخترت أن أضيء هذا الجانب الاقتصادي من خلال تناولى لسيرة أبى الأنبياء وخليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام، مؤسس الحضارة الحنيفية القائمة على التوحيد الذى وصفه القرآن بالأمة، خليل الرحمن، صاحب القلب السليم، الإمام أبى الأنبياء الذى تزعم بلاد الشرق وعمل على تأسيس حياته على الإيمان والطهارة والتوحيد ووضع أسساً لا تعرف التهالك على الشهوات ولا التكاليف على حطام الدنيا أو التناحر على جيف المادة أو التقاتل على الحكومات والمناصب .

خصه الله بأن جعله من أوائل المبشرين بالوحدانية، ومؤسسى الإسلام، وبانى المجتمعات الفاضلة البعيدة عن الرجز والأوثان وكل أنواع الشرك بالله. ولكم كان ذلك شاقاً وعسيراً للغاية؛ لندرة ما وجدت فى الكتب من نصوص ناقشت هذه القضية بشكل خادى والتى توضح بعض جوانب الحياة الاقتصادية التى كان يعيشها الفرد فى عهد إبراهيم عليه السلام. وقد نهج هذا البحث المنهج الوصفى التاريخى . وإذا ما تناولنا الجانب الاقتصادى فى هذا البحث فينبغى دراسة سلوك الفرد فى مجتمع ذلك العصر فى إشباع الحاجات والرغبات المتعددة من الموارد المحدودة^(١). وكيف ينطبق مفهوم المشكلة الاقتصادية على عصر إبراهيم عليه السلام ، مع إيضاح جوانبها وكيفية معالجتها.

وقد رأيت أن يكون ترتيب البحث على النحو التالى :

التمهيد: ظروف البيئة وقدراتها فى تلبية احتياجات الفرد فى عهد إبراهيم عليه السلام: ويتضمن هذا التمهيد النقاط التالية :

١- نشأة إبراهيم عليه السلام كمرحلة تعلم لمبادئ التجارة والاقتصاد.

٢- البيئة المحيطة بإبراهيم عليه السلام... (وهى تعكس مدى توافر عوامل الإنتاج) .

المبحث الأول: عوامل الإنتاج التى اعتمدت عليها الحياة فى عهد إبراهيم عليه السلام: ويتضمن هذا المبحث النقاط التالية :

أولاً: عنصر الأرض كمصدر طبيعى للحياة الاقتصادية فى عصر إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: عنصر رأس المال فى عهد إبراهيم عليه السلام.

ثالثاً: عنصر العمل فى حياة إبراهيم عليه السلام وعائده الاقتصادى .

رابعاً: أسلوب التنظيم والتخطيط عند إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثانى: معالجة إبراهيم عليه السلام للمشكلات الاقتصادية فى عهده :

أولاً: هجرات إبراهيم أسبابها ونتائجها الاقتصادية .

١- هجرة إبراهيم من اور إلى حران .

(١) سعيد سعد مرطان، «دخل للفكر الاقتصادى فى الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م،

٢- هجرة إبراهيم إلى كنعان .

٣- رحلة إبراهيم إلى مصر وأهميتها الاقتصادية في عهده .

٤- هجرته إلى جرار ونتائجها الاقتصادية .

٥- هجرة إبراهيم إلى الشام .

ثانيًا : بناء إبراهيم بيت الله وحكمة الحج ومنافعه الاقتصادية .

المبحث الثالث: فلسفة إبراهيم في الدعوة إلى الله والتغلب على مشاكله الاقتصادية:

أولاً: صفات إبراهيم عليه السلام ودورها في إصلاح المجتمع .

ثانيًا: مبدأ الزكاة عند إبراهيم وإكرام الضيف.

ثالثًا : فلسفة إبراهيم في الدعوة إلى الله .

رابعًا: آثار تلبية الله عز وجل دعوة إبراهيم عليه السلام على الحياة الاقتصادية في المنطقة.

الخاتمة

التمهيد

ظروف البيئة وقدراتها في تلبية احتياجات الفرد في عهد إبراهيم

يتصل نسب سيدنا إبراهيم عليه السلام بنوح الذي عمر ٩٥٠ سنة، ثم سام الذي عمر ٦٠٠ سنة، ثم أرفكشاد الذي عمر ٤٣٨ سنة، فشالح ٤٣٣ سنة، ثم عابر ٤٦٤، ففالج ٢٣٩ سنة ثم رعو ٢٣٩ سنة، ثم سروج الذي عمر ٢٣٠ سنة، ثم ناحور ١٤٨ سنة، فتارح ٢٠٥ سنة أبو إبراهيم عليه السلام . أما إبراهيم عليه السلام فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح عليه السلام^(١). قيل: أنه عاش مائتي سنة وقيل مائة وخمس وسبعين^(٢).

١ - نشأة إبراهيم عليه السلام كمرحلة تعلم لمبادئ التجارة والاقتصاد:

عاش إبراهيم بنى أور الكلدانيين وكان أبوه (تارح أو أزر) نحاتاً ماهراً زائع الصيت، يصنع تماثيل الآلهة. يزول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار: أن ملك بابل أرسل فى طلبه ليصنع تماثلاً للآله مذبوح كبير الآلهة. ويقول أيضاً أن ناحور - جد إبراهيم - كان قد برع في تعلم التتجيم، وأنه كان ينظر فى كبد شاة مذبوحة ليستطلع المستقبل . وكبر إبراهيم رأى أباه وهو يصنع التماثيل للآله ببراعة، ويشكل الخشب على هيئة إنسان ذو أذنين كبيرتين، ويحمل السلاح المقدس، ويربض تحت قدميه وحش، ويقال أنه سأل أباه: لماذا تكون أذننا التمثال كبيرتين؟! وكان الجواب أن الأذنين الكبيرتين ترمزان إلى فهم عميق^(٣).

وعاش إبراهيم مراحل صنع التماثيل، ورأى كيف أنه أحياناً ينشق التمثال المصنوع من الخشب وينكسر؛ فلقى به والده جانباً، وقد يستعمله كوقود للنار ويصنع غيره، ولعله كان أحياناً يقوم بالليل؛ فيرى الجرذان والحشرات تمشى على وجوه التماثيل، ولا تستطيع ردها عن نفسها؛ فكان لنشأة إبراهيم عليه السلام فى بيت اشتغل ربه بصنع التماثيل والتجارة لها كبير الأثر فى

(١) رشدى البدرأوى، قصص الأنبياء والتاريخ ، ، جامعة القاهرة ، ج ٢ ، يناير ١٩٩٧ ، ص ٢١٨ .

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ج ١ ، ط ٥ ، ١٩٨٩ م، ص ١٧٨ .

(٣) عبد الحميد جودة السحار ، محمد رسول الله والذين معه ، ج ١ ، ص ١٨ .

تعلم إبراهيم فنون التجارة والمقايضة وكل ما يحيط بهذه التجارة، فاكسب إبراهيم براعة في التجارة بحكم نشأته، كما اكتسب خبرة كبيرة في التفاوض، وهي التي ظهرت بالفعل عند حاجته مع النمرود بن كنعان الذي طلب من إبراهيم أن يبرهن على وجود الله .

وكان آزر أبو إبراهيم يصنع الأصنام، ويضيف عليها صفة النجومية وعلوم الفلك؛ فكان قومه يشترون منه لا من غيره^(١) فأراد إبراهيم تخليصهم من هذه الأصنام التي كانت تشكل لديهم خسارة مالية؛ لما كانوا يتكفون تكاليف باهظة ترهقهم في تقديم القرابين والذبائح والطعام والشراب لتلك الآلهة^(٢). وكان آزر يعطى الأصنام لإبراهيم ليبيعهها فكان إبراهيم يذهب إلى الأسواق وينادي: "من يشتري ما يضره ولا ينفعه" فلا يشتريها أحد، فإذا بارت ذهب بها إبراهيم إلى نهر فيصوب رؤوسها ويلقيها فيه ويقول : اشربي استهزاء بقومه الذين كانوا يقدرونها تقديراً كبيراً ، فشاع عند القوم استهزاؤه بأصنامهم^(٣).

٢ - البيئة المحيطة بإبراهيم عليه السلام (وهي تعكس مدى توافر عوامل الإنتاج):

كانت منطقة الشرق الأدنى القديم تنقسم إلى قسمين :

١- الزراع وساكنى القرى.

٢- البدو الرحل والصيادين.

وكانت طبيعة كل قسم تختلف عن الآخر تبعاً لمكان إقامتهم وسهولة المعيشة أو صعوبتها، وكان على الزراع الانتظار حتى ينمو الزرع وتتضج البذور، وكان كل زارع يتعهد الأرض التي يزرعها فتصبح ملكاً له^(٤).

وقد ساعدت الزراعة على قيام المدنية والحضارة وتطورها، وقد تتوافر الظروف الملائمة للزراعة حول بئر في الصحراء؛ فتتشأ تجمعات سكانية حول البئر. ويختلف عدد السكان حسب غزارة مياه البئر، فتقوم حضارة منعزلة وسط الصحراء. ولكن حينما يجف مورد المياه هذا يرتحل القوم عن المنطقة.

(١) أبي الفتح محمد عبد الكريم الشهر ستاني، الملل والنحل ، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل ، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ص ١٠٩ .

(٢) عفيف عبدالفتاح طيارة ، اليهود في القرآن ، انتشارات الشريف الرضى ، إيران ، ١٤١٨هـ — ص ١٣٨ .

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، مرجع سابق، ص ١٦٥ .

(٤) عبد الله بن أحمد المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مكتبة العيكان، ط ٣، ٢٠٠١م، ج ١، ص ١٠ .

أما من كانوا يعيشون على الرعى؛ فكانوا كثيرى التنقل من مكان إلى مكان، سعيًا وراء المعيشة والكأ. ولتقلهم الدائم لم يكن فى استطاعتهم بناء بيوت ثابتة، بل كانت مأواهم الخيام ليسهل نقلها كلما ارتحلوا إلى مكان جديد، وكانت ألبان الأغنام ولحومها يعتمدون عليها فى الطعام، وكانت الأمطار مصدرًا أساسيًا للحياة الاقتصادية لنمو المراعى، فإذا شح المطر كانت تلك المراعى تتعرض للجفاف فيندر فيها العشب اللازم لحياة الأغنام ويقل الصيد أيضاً؛ فكان لابد- لكى يجدوا طعامهم - أن يغيروا على الشعوب المستقرة، وخاصة تلك المجتمعات المستقرة التى دائماً ما يكون لديها وفرة مخزونة من الطعام، وهنا يتضح أن الحضارات قامت اقتصاديًا على أساس إما الزراعة عند توافر الظروف الملائمة لهذه الزراعات، وإما الرعى والصيد. وكانت هذه الحضارات تستند على مدى توافر الموارد الاقتصادية التى تستمد منها القوة وتمنحها الاستمرار.

وقد عاش إبراهيم عليه السلام فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ووطنه الأصلي وطن آبائه وأجداده فى جزيرة العرب والمناطق الآرامية فى منطقة الفرات الأوسط، حيث استقر أجداده عرب البادية النازحون من الجزيرة الذين نزلوا إلى العراق، ومنهم أسرة إبراهيم عليه السلام، وينتمى إلى القبائل الآرامية، وهى قبائل عربية نزحت من جزيرة العرب سعيًا وراء المرعى الخصب والماء الوفير^(١).

وكان قوم إبراهيم جماعات من القبائل الرحل التى تشتغل بالصيد تارة، وبالغارات تارة أخرى، وبالمرعى بين هذا وذاك، ويطلق عليهم الآراميين، وكانت حياتهم تميل إلى تجميع أنفسهم إلى جوار مراكز الحضارة حيث العمل والتجارة، وندرت بينهم الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقول أو تنظيم المدن فى ظل ذلك النظام الاجتماعى، وكانوا يعيشون على إنتاج قطعانهم وصيدهم ويحصلون على غلات الحقل والمصنوعات بالمقايضة على مقتنياتهم^(٢). وكانت الدول القديمة بين النهرين تقوم على نظام حكومات المدائن أى مجموعة من العواصم تحيط بها البادية، وتعتمد على نقل التجارة وكان العالم فى ذلك الوقت يبدأ من أور فى الجنوب، وينتهى إلى آشور شمالاً، ثم يتجه غربًا وجنوبًا إلى فلسطين وخليج العقبة، ثم الحجاز حيث تلتقى قوافل الشمال والجنوب.

(١) أحمد سوسة، العرب واليهود فى التاريخ، العربى للطباعة والنشر، ط٧، دمشق، ص ٥٥٣.

(٢) عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، فضاء مصر، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٥٤، ٥٥.

وكانت أهم هذه المدائن مدينة أور؛ لأنها كانت ملتقى التجارة من البحر والبر وتنقلها من الشرق إلى الغرب والعكس والجنوب والشمال.

وفي مدينة أور، بدأت دعوة إبراهيم الخليل، ومنها تسلسلت تنقلاته ورحلاته من أور إلى آشور ومن آشور إلى حبرون (بيت المقدس) إلى مدن خليج العقبة إلى مدينة الحجاز.

وكان مولد إبراهيم في عهد النمرود؛ الذي أحاط ملكه مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي ذكر بالقرآن عندما حاجه إبراهيم بالأدلة على وجود الله الواحد الأحد، والنمرود هو الذي أمر بإلقاء إبراهيم في النار، وحينما نجا إبراهيم جعل يقول: «نعم الرب ربك يا إبراهيم»، وعرض النمرود تقديم قربان لإله إبراهيم، فذبح أربعة آلاف بقرة، إلا أن إبراهيم أخبره أن الله لن يتقبلها منه إلا إذا آمن^(١).

(١) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ١١، ص ٣٠٤. وقيل أن قائل هذه العبارة هو أبوه. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ص ١٧٠، ١٦٣.

المبحث الأول

عوامل الإنتاج التي اعتمدت عليها الحياة في عهد إبراهيم

يمكن تحديد عوامل الإنتاج في عهد إبراهيم عليه السلام في أربعة عناصر أساسية هي:

- ١- عنصر الأرض
- ٢- عنصر العمل
- ٣- عنصر رأس المال
- ٤- عنصر التنظيم^(١).

وعلى قدر توافر هذه العناصر ينعكس مدى القدرة على القيام بعمليات الإنتاج التي يمكن من خلالها تلبية حاجات ورغبات الأفراد داخل المجتمع.

أولاً: عنصر الأرض، كمصدر طبيعي للحياة الاقتصادية في عصر إبراهيم عليه السلام:

أقام إبراهيم عليه السلام بمنطقة الجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين ومصر، وكانت كلها منطقة جغرافية واحدة وسط قبائل البادية الذين كانوا يعيشون حياة الترحال من مكان إلى آخر، سعيًا وراء وسائل الرزق ومصادر المياه اللازمة لإبلهم وأغنامهم، وكانوا لا يركنون إلى الاستقرار، ويتواجدون حيث توافر الأرض والماء، وكانوا يعيشون داخل خيام يحملونها أينما ارتحلوا على امتداد الأرض المنزرعة، يحملون متاعهم وخيامهم على ظهور الحمير، ويقدمون المساعدة للمزارعين أثناء مواسم الحصاد^(٢).

وكانت حياة البداوة التي عاشتها القبائل تقرب من بعضهم بعضًا، من خلال مسؤولياتهم عن حماية أنفسهم وحداية قطعانهم.

وقصة إبراهيم عليه السلام التوراتية، تحدثت عن علاقة إبراهيم ونسله المتكررة بالأرض والعهد الذي يقطعه الرب مع إبراهيم في وراثة الأرض، فتذكر التوراة انتقال إبراهيم من أرضه إلى الأرض التي سيدله عليها الرب والتي تفيض لبنًا وعسلًا .
والقصة في التوراة لم تركز على الدافع الديني بل أظهرت أن الدافع المحرك لها كان اقتصاديًا^(٣).

(١) سعيد سعد مرطان . مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(٢) رشاد الشامي ، اليهود واليهودية في العصور القديمة ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، ٢٠٠١ م ، ص ٥٨ .

(٣) أحمد حماد ، تاريخ اليهود ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ١٢٨ .

وتعد الأرض مصدراً طبيعياً من أهم المصادر التي تعتمد عليها الحياة من إنسان وحيوان ونبات، إلى جانب أنها موضع سعي الإنسان؛ فيشير القرآن الكريم في الكثير من آياته إلى أهمية الأرض وخيراتها للإنسان ويتمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء: ٧) وقوله تعالى: ﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ..﴾ (النحل: ١١)^(١). وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (يس: ٣٤) .

وكان إبراهيم عليه السلام، يقطع المسافات الطويلة مرتحلاً بأهله وجماعته وقطعان مواشيه وأغنامه عبر البوادي، في مساحات شاسعة من أراضي الجزيرة العربية؛ قاصداً الرزق وتوفير أسباب الحياة لك من معه؛ فيجلب خيرات كل مكان وكل أرض يقيم بها؛ فتجلت رسالته الروحية والإنسانية، واستطاع بهذا أن يصل بين حضارات العالم القديم .

كما استطاع عليه السلام، عن طريق ترحاله بين ماري وحران وتدمر ودمشق وكنعان وكل الجزيرة العربية ووادى الفرات، أن يقوم بدور كبير في تنشيط الحركة التجارية في الشرق الأوسط والسيطرة على طرق القوافل بين العراق وسوريا ومصر والحجاز ، وكان له اتصال وثيق بقبائل القينيين والقديرين والقنوميين والفرزيين والرفائيين والجرشانيين واليبوسيين، إلى جانب القبائل إلى كانت موجودة في زمانه وانقرضت؛ مثل عاد وثمود ومعين وسبأ والعمالقة، وكانت جميع القبائل ترجع إلى أصل واحد^(٢).

وقد دلت التنقيبات التي أجريت في بابل، أن تسمية "إبراهيم" أو "أبرام" كما وردت في الألواح البابلية، وتدور حول عقود ومقاولات تتعلق بمعاملات زراعية وتجارية، كما ورد في وثائق مصرية ذكر مزرعة باسم "مزرعة أبرام" جنوبي فلسطين، وعثر على كتابة في "لارسا" جنوب العراق تعود إلى عهد حمورابي في هذا الشأن^(٣). فعد إبراهيم رسولاً حاملاً علم العروبة بين وادي الرافدين ووادى النيل.

(١) صادق مكي ، موسوعة الأديان السماوية والوضعية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٥ م ، ج ٧ .

(٢) أحمد سوسة ، مرجع سابق ، ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

(٣) المرجع السابق، ص ٥٦١ . وتشريع حمورابي هو أهم مصدر اعتمدت عليه أسفار العهد القديم ويرجع تاريخه إلى نحو ١١٤٠ ق.م واكتشف سنة ١٩٠٢ وهو أقدم تشريع سام عرف حتى الآن وبه تشابه كبير بينه وبين القوانين اليهودية .

من أبرز قوانينه العلاقة بين الجريمة والعقوبة ويسرى هذا على البضائع والأموال فالسلعة بالسلعة والسفينة بالسفينة والثور بالثور والضأن بالضأن وقد حكم ٤٢ سنة بين ١٧٩٢ و ١٧٥٠ ق.م =

وكان زعماء قبائل العرب الذين أطلق عليهم البائدة، يعتبرون إبراهيم عليه السلام صاحب مقام سام اجتماعيًا ودينيًا وسياسيًا واقتصاديًا؛ فكانت اتصالاته تشمل جميع الهلال الخصيب، ويقال: أنه كان أميراً من أمراء بابل، وقيل: أنه عندما حل بدمشق نصب ملكاً عليها، وكان الحثيون الذين كانوا يقيمون جواره في فلسطين ينظرون إليه كأمر عظيم، وكان اليعازر الدمشقي قيم بيته. وروى ياقوت الحموي أن جد إبراهيم عليه السلام هو الذي حفر نهر "كوثي"^(١) وكان أول نهر أخرج بالعراق من الفرات^(٢).

وقيل: أن إبراهيم كان خبيراً بطرق البادية ومواقع آبارها، وكانت له اتصالات برؤساء قبائل أور الكلدان وسوريا وفلسطين والحجاز ومصر، وكانت له اتصالات تجارية وسياسية وزراعية مع القبائل التي تسكن البادية المتصلة بالفرات والأردن والحجاز، وكان له ارتباط وثيق بالجزيرة العربية^(٣).

= (يوسف عيد، موسوعة، الأديان السماوية والوضعية، مرجع سابق، ص ١٢١). وقام بمشاريع الري ونشر الرخاء في البلاد أحمد سوسة، مرجع سابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣. وقد تناولت شريعته القضايا المتعلقة بشئون الري وزراعة الحقول وبساتين النخيل وفرضت عقوبات لتنظيم العلاقات بين المزارعين والقضايا المتعلقة بالملك والفلاحين ومواد تتعلق بالأسعار وتعيين أجور الأعمال ومواد تتعلق بالسفن وخزن الحبوب والشئون التجارية. كما جاء في شريعة حمورابي حكم العين بالعين والسن بالسن، كما حددت حقوق الرقيق وحدودهم وواجباتهم.

كما تناولت حد السرقة فإذا سرق شخص ثوراً أو شاة أو حملاً أو خنزيراً أو .. فإنه يعرضه بثلاثين مثلاً أما إذا كان المسروق يعود إلى مسكين فإنه يعرضه بعشرة أمثال، وإذا سرق زرعاً أو أكلاً ومسكت في يده فإنه يده تقطع، وفي حقوق الديون إذا كان استحقاق الدين على سيد وباع زوجته أو ابنته أو ارتبط هو نفسه بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو الدائن ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة.

وفي مسألة التعويض عن الأضرار فشريعة حمورابي جعلت على سبيل المثال التعويض الواجب دفعه في حالة رعى حقل ما أن يعطى الراعى إلى صاحب الحقل عشرين كوراً من الحبوب يكون من الأراضي المرعية (انظر أحمد سوسة، ٤٧٦ - ٤٩٥).

(١) فخر كوئي بالعراق وكوئي من بني أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وهو الذي حفره فنسب إليه وهو جد إبراهيم عليه السلام أبو أمه بونا بنت كرنبا بن كوئي وهو أول فخر أخرج بالعراق من الفرات بمدينة كوئي مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وبها مولده وبها طرح إبراهيم في النار (ياقوت الحموي معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ج: ٤، ص ٤٨٧).

(٢) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص ٥٥٨، ٥٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٦٠.

ومما يؤكد ذلك الحصول على ألواح تعود إلى عصره عليه السلام تدور حول عقود ومقاولات زراعية في هذا الشأن^(١).

وكان الماء مصدر الحياة الطبيعي لهؤلاء البدو، حيث اعتمدوا عليه كمصدر للرزق وكانت مراكز الحضارات في العالم القديم؛ تتركز على ضفاف وادي الرافدين فقد عرفوا نظام الري الدائم من قديم الزمان، وكان هذا النظام في الري يعد عاملاً هاماً من عوامل التماسك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. وتتمثل أهمية الماء كعنصر ضروري لاستمرار الحياة في عهد إبراهيم فقد كان امتناع المياه من مكان إقامته هو وأغنامه وأهله وعشيرته؛ سبباً رئيسياً لانتقال إبراهيم ومن معه من خلال مسؤوليته تجاه أهله ورعيته إلى مكان آخر حيث وفرة المياه اللازمة للأغنام والزرع، فقد كانوا يحطون خيامهم عند مصدر المياه، وكان إبراهيم يقوم بحفر الآبار في المناطق التي يذهب إليها لحاجة غنمه ورعيته. وفي تسخير الماء لإحياء الأرض بعد موتها قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾ (السجدة: ٢٧) ومن أبرز الآبار التي حفرها إبراهيم عليه السلام بئر منطقة السبع وغيرها^(٢).

ثانياً: عنصر رأس المال في عهد إبراهيم:

رأس المال العيني عند إبراهيم؛ كان يتمثل في أغنامه وماشيته، والأحجار التي استعملها مثلاً في بناء الكعبة، والمعادن التي كانوا يستعملونها في صناعة الأقواس والنبال وغيرها. إلى جانب الثمار الناتجة من الزراعة في عهده، والتي كان يقوم بتوزيعها التوزيع العادل على الأيدي العاملة وعلى ساكني البلاد، مما يبين اهتمامه بترسيخ مبدأ اقتصادي عظيم؛ وهو العدل في توزيع الثروات كأساس اقتصادي يشجع كل فرد من أبناء المجتمع على الترقى بمجتمعه اقتصادياً. وكان إبراهيم في معاملاته في البيع والشراء يتعامل بنظام المقايضة في بعضها، ويتعامل بنظام العملة في بعضها الآخر، كما هو الحال عندما اشترى قبر سارة بأربع مائة مثقال وقيل بخمسين درهما.

(١) أحمد سوسة، ص ٥٦٩.

(٢) انظر توزيع المياه عند الفقهاء، رفيق يونس المصري، أصول الاقتصاد الإسلامي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٦٩ - ١٧١.

وكانت الأغنام عماد الحياة التي يعتمد عليها قوم إبراهيم، إضافة إلى الأبقار والإبل والماشية، التي يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويكتسبون من أوبارها، ويفتدون بها أسراهم، ويمهرون بها في الزواج، وكانت من أسباب تنقلاتهم من مكان لمكان بهدف رعايتها والمحافظة عليها^(١). وقد اعتبرها إبراهيم وسيلة الثروة وانتهج نظاماً عادلاً في توزيعها حتى يتحقق العدل المطلوب وتوزيع الثروة التوزيع العادل .

وكان إبراهيم يرجع محملاً بها من هجرته، وكانت تقدم له هدايا وهبات من قبل الملوك الذين التقى بهم خلال ترحاله أمثال فرعون مصر وأبى مالك ملك جرار .

أما الجمال؛ فكانت تستخدم كوسيلة نقل صحراوية تربط الجزيرة العربية بأجزاء الهلال الخصيب، كما كان لها دورها الهام في تأمين المواصلات الصحراوية وتنمية الصلات التجارية في أنحاء الشرق الأدنى. وعلى ظهورها كان هو وأهالي تلك المناطق ينقلون أموالهم وبضائعهم التجارية عبر الصحراء. وقد ورد في سفر التكوين، أنها كانت من جملة مقتنيات إبراهيم الخليل: «وصدر له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال»^(٢)، أما وسائل تنقلهم؛ فكانت الحمير^(٣).

وقيل أنه لما نثر مال إبراهيم ومواشيه، واحتاج إلى السعة في المسكن والمرعى، وكان مسكنه بين مديز والحجاز، وكان ابن أخيه لوط يسكن معه، اقتسم معه المال، وأعطاه نصفه. وخيره النزول بأرض يرغبها؛ فاختار لوط أرض الأردن لخيراتها الكثيرة لأجل إنماء ماله^(٤).

ثالثاً: عنصر العمل في حياة إبراهيم وعائده الاقتصادي :

يعرف العمل بأنه كل مجهود بدني أو ذهني مقصود ومنظم؛ يبذله الإنسان لإيجاد أو زيادة منفعة مقبولة شرعاً^(٥). وللعمل أهداف روحية وأخروية إلى جانب الأهداف المادية. وكان إبراهيم عليه السلام خير من أدى واجبات العمل على أكمل وجوها. وقد روى في صحف

(١) انظر توزيع الغنائم، الإسلام، المرجع السابق، ص ١٦٧ .

(٢) سفر التكوين ص ١٢/١٦

(٣) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص ٣٢٢ .

(٤) الطبري، تاريخ، ج ١، مرجع سابق، ص ١٨٤ .

(٥) سعيد سعد مرطان . مرجع سابق، ص ٨١ .

إبراهيم^(١) الحث على العمل فجاء فيها : "من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه"^(٢).

وتبرز أهمية العمل والسعي من أجل حياة أفضل، وتتجلى في حياة إبراهيم عليه السلام، من خلال مواجهته للآزمات، الاقتصادية التي تعرضت لها بلاده ، حيث تطلبت منه مجهوداً كبيراً وعملاً شاقاً لأجل تدبير الوسائل المعيشية المناسبة لاحتياجات أهله وعشيرته، والسعي للحصول على حياة أفضل. وظهر ذلك من خلال هجرته وترحاله، وحفره الآبار للحصول على قوت أهله وغنمه وعشيرته، وقد مثلت تلك الهجرات أهم سمات الحياة الاقتصادية في عهده . وكانت الأيدي العاملة من العوامل التي ساعدت إبراهيم عليه السلام في حياته الاقتصادية وتمثل القوة البشرية في عهده :

- العبيد : جاء في سفر التكوين أن من جملة مقتنيات إبراهيم العبيد^(٣). فمنهم الذين أهداهم فرعون إلى سارة زوجته، ومنهم الذين أهداهم له أبو مالك، وقد كثر عبيده حتى أنه اتخذ عليهم مشرفاً هو "اليعازر الدمشقي" . وكان لإبراهيم ما يزيد على ثلاث مائة عبد، أعتقهم؛ فأسلموا، وأصبحوا موالين له^(٤).
- الأتباع، وقد كثروا وزادوا في دمشق وحبرون ، وحرص إبراهيم أن يعطيهم حقوقهم كاملة حتى من هدية ملك سدوم لهم ، فكان إخلاصهم ووفاءهم خالصين لإبراهيم عليه السلام ووطنه .

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: "كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المتلى المفرر، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات؛ فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لما حته من الطعام والمشرب وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث؛ تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة محرم وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً لسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . المنذرى الترغيب والترهيب، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٧١٧، تحقيق إبراهيم شمس الدين ٣ / ١٣١ وقد نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان . انظر مسند أحمد (١٠٧/٤) وسنن البيهقي الكبرى (١٨٨/٩) .

(٢) أبو عمر يوسف البر النمرى ، التمهيد لابن عبد البر ، ١٩٩ ، ج ٩ ، ج ٢١ ، ص ٢٨٩ ، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ، المغرب ، ١٣٨٧هـ، والترغيب والترهيب ج ٣ ، ص ١٣١ .

(٣) تك / ١٢ / ١٦ .

(٤) محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ٤٧/١ .

- أهله وعشيرته، الذين كان ينتقل بهم من مكان لآخر؛ فكانوا من عوامل نهضته الاقتصادية .

١ - الجهاد العملى عند إبراهيم عليه السلام لتوفير حياة أفضل :

تتضح أهمية العمل باعتباره العنصر الأساسى فى الإنتاج والمصدر الحقيقى للرزق. يقول ابن خلدون فى أهمية العمل: "اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد فى الرزق من سعى وعمل ولو فى تناوله وابتغائه من وجوهه^(١). وقد تجلّى هذا العمل من خلال هجرات إبراهيم عليه السلام التى كانت نوعاً من الجهاد فى سبيل الله؛ فكانت جهادا من أجل الرزق والعمل نحو حياة أفضل؛ لأهله وأنعامه. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة: ٢٠). فقد قرن الله سبحانه وتعالى الجهاد بالهجرة، فكانت هجرة إبراهيم عليه السلام مقرونة بالدعوة إلى التوحيد والعمل والسعى والجهاد من أجل الحصول على الرزق^(٢).

٢ - السعى العلمى عند إبراهيم عليه السلام :

العمل هو كل مجهود بدنى أو ذهنى، وقد ظهرت مظاهر سعى إبراهيم عليه السلام الذهنى من خلال انتهاجه طريق العلم والعمل؛ فكان سعيه لاستكشاف محيط الإنسان وعلاقته بالكون والتوصل إلى معرفة ما ينفع الإنسان وما يضره، والتفكر فى الظواهر الطبيعية للوصول لمعرفة الكون الذى يعيشه من كواكب ونجوم وقمر وشمس بهدف الوصول إلى خالق العالم بأثره فيستطيع بالعلم والمعرفة الوصول إلى حقيقة توحيد الإله الأعلى، وبصدق إبراهيم وإيمانه الفطرى استطاع أن يقيم الحجة بالأدلة العلمية واستطاع أن يتغلب على الحاكم الذى ظن أنه يحيى ويميت حتى بهت ببرهان إبراهيم حينما أخبره أن يأتى بالشمس من المغرب إن استطاع .

(١) مقدمة ابن خلدون، الفصل العشرون من الفصل الرابع والستة فصول الأولى من الفصل الخامس، دار القلم، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ٣٧٦ - ٣٩٣ .

(٢) انظر المبحث الثانى : هجرات إبراهيم ، أسبابها ونتائجها الاقتصادية

وذلك هو السعى العلمى الذى يتحتم على الإنسان نهجه فى كل أمور حياته؛ بهدف إصلاح البشر وخير الإنسانية ونفعها . ويشهد القرآن على هذا فى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَرْنِهِ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ٨٣) .

٣- مظهر السعى فى حياة هاجر:

تتجلى أهمية العمل أيضاً من أجل الرزق فى قصة السيدة هاجر، وصدق إيمان كل من إبراهيم وهاجر بقدرة الله سبحانه وتعالى، حينما أودع إبراهيم عليه السلام هاجر وزوجته وابنه إسماعيل فى أمانة الله وحفظه فى مكان مقفر، لا زرع فيه ولا ماء ولا حياة لأحد من البشر، فأعطى إبراهيم عليه السلام لأبشرية، مبدأ الإيمان الصادق والتوجه المخلص إلى الله عز وجل، وأنه تعالى لن تضعيع الأمانات عنده؛ فكان ذروة التوكل على الله، إلا أنه وجب مع الإيمان المطلق بالله ضرورة العمل من أجل بلوغ الأهداف المنشودة . فعلى الرغم من الإعياء والمكابدة المعنوية التى كانت تعانيها هاجر، ومع إيمائها بأن الله لن يضيعهم إلا أنها سعت بين الجبال بين الصفا والمروة لأجل إطعام طفلها ونجدته من الموت المحتم بالجوع والظمأ، سبع مرات بمجهود شاق وعسير على المرأة^(١) وكثرة سعيها لدلالة على أهمية العمل للحصول على الرزق الذى أثمر بتدفق المياه تحت قدمى ابنها وانفجرت المياه الغزيرة فى بئر زمزم برحمة الله وقبوله سعيها فعم الماء والرخاء على المكان، حتى الطيور جاءت لترتوى من هذا المكان المقفر .

ونستخلص مما ورد، أن التوجه السليم لله، وإخلاص النية والدعاء لله، مع العمل، لابد وأن يأتى بثمار لم تكرر فى الحساب. ويذكر القرآن أهمية العمل فى قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ " وَأَن سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ "﴾ (النجم: ٣٩، ٤٠).

٤- عمل إبراهيم انى بناء بيت الله الحرام :

يتجلى مبدأ أهمية العمل عند إبراهيم وإذعانه لأمر الله، حينما أمره الله ببناء البيت الحرام، فكان مجهود البناء ورفع الحجارة ووضعها، لهى من أشق الأمور على إبراهيم، وكان شيخاً كبيراً طاعناً فى السن ، فأعطانا إبراهيم نموذجاً حياً لضرورة العمل والسعى حتى آخر

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، مرجع سابق، ص ١٥٤

العمر ليبلغ الإنسان هدفه . فكان إبراهيم وإسماعيل "عليهما السلام" ، يقومان بحفر الكعبة بالمعاول حتى وضعوا الأساس^(١). وكان إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بحجر فوضعه وقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة .
وقيل أن إبراهيم بناه من خمسة أجبل : حراء ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخير^(٢).

وعلى الرغم من هذا العمل المضني الشاق؛ إلا أنهما كانا يتوجهان بالدعاء لله بقولهما:
﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)^(٣).
ونخلص من هذا، أن العمل وحده لا يكفي، بل لابد وأن يصحب العمل توجه مخلص بالدعاء إلى الله بالتوفيق وقبول هذا العمل، وهنا يكتمل طريق الوصول للأهداف والغايات التي ينشدها الإنسان. فالسعي الشريف في الأرض، والعمل المتواصل، والجهاد لتحسين المستوى المعيشي مع الإيمان واليقين، كانت وسائل إبراهيم عليه السلام في تحديد المسالك التي يسلكها الفرد ليحيا حياة كريمة في مثل مجتمع فاضل قائم على أسس اقتصادية سليمة.

رابعاً: أسلوب التنظيم والتخطيط عند إبراهيم عليه السلام :

تعاطفت ثروة إبراهيم عليه السلام قبل زيارة مصر، وازدادت بعد زيارة مصر، وورد في التوراة "فصعد أبرام من مصر هو وامراته وكل ما كان له ولوط معه ... وكان أبرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل وعاءى -المكان الذي كانت خيمته فيه في البيداء - إلى مكان المذبح الذي عمله هناك أولاً، ودعا هناك أبرام باسم الرب^(٤). وكان إبراهيم دائم التنقل بين حبرون ومكان المذبح قرب بيت إيل لعدم كفاية المراعى لمواشيه^(٥). كان خلال تنقلاته، يقيم مذبحاً صغيراً للرب، ليتعبد فيه مع من آمنوا معه، وكان بذلك يضرب حجر الأساس لفكر اقتصادي قائم على تحقيق العدالة في توزيع الثروة

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٢) رواه الطبراني وابن كثير - ج ١ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ . وكان بيت الله قد رفع زمن الطوفان بعدما اهبط مع آدم من الجنة وكان الأنبياء يحجون إليه ولا يعلمون مكانه.

(٣) صحيح البخارى ، حديث رقم ٣١٨٤ .

(٤) تلك ص ١٣ .

(٥) البدراوى ، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

على من آمن معه؛ فكان يذبح ويطعم الفقير والمسكين، وكذلك فعل أتباعه ممن يستطيعون ذلك، حتى يحقق التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع المختلفة .

ويظهر ذلك أيضاً في علاقته بلوط ابن أخيه. والذي كان يقيم معه، وكان أول من آمن بإبراهيم هو وزوجة إبراهيم سارة، وقد ورث لوط عن أبيه كل ثروته؛ فكانت لديه ثروة كبيرة وأغنام .

في ذلك الوقت كثرت الأغنام والماشية التي يمتلكها إبراهيم ولوط، حتى ضاقت الأرض بها، وأصبح الرعاة في نزاع مستمر حول الآبار والمراعي، نظراً لازدياد القطعان التي اختلط بعضها ببعض فلم تحتلها الأرض؛ فأشار إبراهيم إلى لوط أن يفترقا ويتقاسما البرية؛ فأعطى إبراهيم لوطاً نصفها، وترك للوط اختيار المكان الذي يريد الذهاب إليه في كل الأرض. وكان الكنعانيون والفرزيون ساكنين في الأرض؛ فخشى إبراهيم أن يبلغ مسامعهم منازعات جيرانهم على المراعي؛ فبهجموا عليهم، فكره إبراهيم أن يظهر أي نوع من الانقسام أو الخصام بينهم ورأى أن في الاتحاد قوة، وفي الانقسام ضعف، لذا دعا لوطاً لاقتسام الثروة بينهما واختيار المكان الذي رغبه، فاختار لوط أرض الأردن لما فيها من خيرات واسعة، وكان لوط يرغب في تحسين مركزه ووضع المال؛ فقد جاء في التوراة :

«فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعائي ورعاتك لأننا نحن أخوان، أليست كل الأرض أمامك، اعتزل عني إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً^(١) وتقول التوراة: فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقى .. كجنة الرب كأرض مصر. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن^(٢).

واختار لوط مدينة "سدوم" لأنه رآها أرضاً خصبة غنية وأقام خيمته هناك ، لكنها على الرغم من جمالها وخصوبتها إلا أن أهلها كانوا أشراً يفعلون الفاحشة، وفي ذلك الوقت دار بها قتال بين أمراء البادية والحضر في تلك البقاع، واقتادوا لوطاً وعدداً من النساء والرجال أسرى وحينما وصل هذا الخبر لإبراهيم، جهز حملة ضدهم مع أتباعه، وانتصر عليهم وخلص لوطاً ومن معه من الأسرى^(٣).

(١) تك : ص ١٣ / ٨ ، ٩ .

(٢) تك : ص ١٣ / ١٠ ، ١١ .

(٣) ف . ب . ماير ، حياة إبراهيم ، تعريب القمص داود ، مكتبة الحبة ، القاهرة ، ١٩٨٩ م ، ص ٦١ .

وما أصاب لوطاً فيها يظهر أن شهوة العالم والربح المادى والمدينة الكاذبة لها نتائجها السيئة على المجتمع^(١). وكانت مدينة سدوم مثالا للمدن التى قويت بها أسباب سوء الاحتكار والاستغلال، واشتهرت بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء وتدليس القضاء؛ فكان القاضى فيها يأخذ أجراً مقابل تغيير آراءه حيث كان يقضى بما يطلب منه فى غير الحق، لذا برز فى ذلك فى الوقت عنصر احتكار المقايضة، وأساليب رفع الأسعار، وزيادة الضرائب والاحتياال على الأصول والشرائع، وقد أطلق "اليعازر الدمشقى" على قضاة سدوم أسماء منها "شقارة" ومعناه "الكاذب"^(٢). ونستخلص من هذه القصة العبر التالية:

- ١- فكر إبراهيم الاقتصادى الحكيم فى توزيع الثروة فى الأرض، وتجنب تركيزها فى مكان واحد، ليعم الخير فى الأرض ونشر الدعوة لعبادة الله الواحد .
- ٢- إنكار الذات لدى إبراهيم الخليل، حيث ترك الخيار للوط على الرغم من صغر سنه .

- ٣- تجنب المنازعات والخلافات التى تفسد المجتمع وتؤدى إلى ضياع الحقوق .
- ٤- الدعوة إلى السلام والخير من أجل صلاح البشرية .
- ٥- تجلى صفة العطاء عند إبراهيم والتى تمثلت فى اقتسام ماله وغنمه مع لوط .
- ٦- أن الطمع والأخذ بمظاهر الدنيا الفانية يؤدى إلى زوال النعم .
- ٧- صفة الشهامة والشجاعة للدفاع عن الآخرين ، مع الإيثار والعدل ويظهر ذلك عندما خلص إبراهيم ملك سدوم من المعتدى، وحينما أراد ملك سدوم مكافأة إبراهيم، أبى أن يأخذ شيئاً لنفسه، لكنه قام بتوزيعها توزيعاً عادلاً على كل من اشترك معه فى قتال الأعداء .

(١) ليلى حسن سعد الدين ، أديان مقارنة ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٥ ، ص ٣٢ .

(٢) عباس العقاد ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

المبحث الثاني

معالجة إبراهيم عليه السلام للمشكلات الاقتصادية في عهده

من العرض السابق لعوامل الإنتاج من خلال بيئة إبراهيم عليه السلام والظروف التي عاشها، والتي كانت تعاني ندرة هذه العوامل من مراعى خصبة، أو مياه، أو زرع، وما إلى ذلك من الأسباب التي تساعد على تكوين مجتمعات مستقرة - وكما أشرنا - فقد كانت الحياة غير مستقرة حتى بالنسبة للزراع وساكنى القرى نتيجة إغارة البدو الرحل عليهم .

وعليه فقد كان لابد لإبراهيم عليه السلام أن يفكر بعقل الاقتصادى، الذى يستطيع قراءة ما حوله من رموز ومؤشرات، فتركزت قراراته فى مجموعة من التصرفات، والتي تمثلت فى هجرته. وكان عنصر الندرة أمر كثيرًا ما قابل الخليل إبراهيم فى حياته ومهمته الاقتصادية، حيث استطاع تحويل عنصر الندرة إلى كيان اقتصادى ينتفع به هو ومن معه ونضرب على ذلك أمثلة:

- عندما هاجر إبراهيم إلى حران، حفر بئرًا لحل مشكلة ندرة المياه ، ونفس الشئ فعله عندما نزل فى موضع آخر بين الرملة وإيليا، حيث حفر بئرًا، ووسع الله عليه فى المال والخدم
- عند قيام إبراهيم عليه السلام ببناء البيت الحرام، بحث عن الأحجار التى تمكنه من القيام بهذا العمل الشاق فقام بجمعها من خمسة أجبل ، ولعل الجبال كانت أيضًا مكانًا لاستخراج بعض المعادن التى تستخدم فى صناعات كثيرة قاموا بها^(١).
- انتقاله وهجرته بهدف توفير المراعى ونمئل على ذلك بهجرته إلى مصر.

أولاً: هجرات إبراهيم أسبابها ونتائجها الاقتصادية :

ولد إبراهيم بمدينة أور الكلدانية حوالى ١٩٢٠ ق.م . وعاش فيها مدة من الزمن قبل انتقاله إلى حران على الفرات. وكانت حران أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل للصابئة ، وكانت الصابئة والحنفاء أهم فرق فى زمان إبراهيم^(٢) وقيل: أن أول

(١) انظر ابن كثير، البداية والنهاية ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٠ م ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) صادق مكى ، موسوعة الأديان ٧ ، مرجع سابق، ص ١٠٠ .

من بنى حران، "هاران" أخو إبراهيم وهي على طريق الموصل والشام والروم^(١) وهي المدينة التي نزل بها إبراهيم مع سارة زوجته فرارا بدينه طالبا الأمان^(٢). ومدينة حران هي التي قيل فيها قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٧١) يقصد حران وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ (العنكبوت: ٢٦) أراد بها حران^(٣). ويذكرها ابن جبير: أن أهلها هينون محبون للغرباء مؤثرون للفقراء ولها أسواق حافلة الانتظام مسقفة بالخشب، ولها نهر، واسعة الرزق، كثيرة المساجد وبها عباد وزهاد أكثر من أن يقيدهم الإحصاء وفيها عين جارية ونزل بها إبراهيم وأقام فيها زمنا^(٤).

١- أهم الآراء حول أسباب هجرة إبراهيم عليه السلام من أور إلى حران:

هناك عدة آراء لبعض المستشرقين حول أسباب ودوافع هجرة الخليل إبراهيم من أور إلى حران، فيرى أبجدون^(٥) أنه كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسي في جنوب العراق أصابت جرائره معيشة أهل أور فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة في أور، وقد وافق هذا القول أيضاً الأستاذ عباس العقاد^(٦). وهناك رأى ثان وهو أن هجرة إبراهيم عليه السلام تتصل اتصالاً وثيقاً بالأحداث التاريخية التي كانت سائدة في جنوب بلاد الرافدين، وهي مرحلة شهدت عدة تحركات بشرية^(٧). أما الرأى الثالث فيرى أصحابه، أن هجرة إبراهيم عليه السلام من أور بعد محنة إحراقه كانت لأسباب دينية، فهو نبي ورسول، ورأى أن أور لم تعد صالحة لتقبل دعوته، فقرر نشر دعوته في غيرها، ولم يكن ذلك إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى^(٨).

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، مرجع سابق، ص ٤٦، ٤٧.

(٥) بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ١٩٩٥، ج ١، ص ١٢٧ إلى ص ١٢٨.

(٦) عباس العقاد، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٧) رشيد الناضور، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، ص ١٧٣.

(٨) رشدي البدرأوى، نصص الأنبياء والتاريخ، مرجع سابق، ص ٢٤١.

ويرى أصحاب الرأي الرابع أن هجرة إبراهيم عليه السلام كانت لأسباب اقتصادية فيقولون أن شهرة بابل قد غطت على أور، فبارت تجارة أور وباتت الحياة فيها غير مستقرة ومن هنا رحل إبراهيم من أور إلى حاران^(١). وعلى الرغم من تباين هذه الآراء التي تم عرضها واختلافها إلا أنها كانت مجتمعة وراء تفكير إبراهيم عليه السلام في الهجرة ومن هنا فإن الدافع الاقتصادي كان دافعا قويا. فلو كان الدافع سياسياً فقط لما فكر إبراهيم عليه السلام الفرار من هذه الظروف السياسية السيئة حيث كان خط سيره^(٢):

أور - لجش - أوروك - بابل - أشتونا - حران - نينوى - آشور

فكان من الممكن أن يفكر فقط في الفرار من الاضطهاد الذي قابله في أور وخاصة بعد محنة الإحراق - إلى أقرب مدينة يحس فيها أنه بمأمن من هؤلاء الظالمين، ولاكتفى بأول مدينة يستقر فيها. إذن لم يكن الدافع سياسياً بل هو دافع ديني في المقام الأول إذ قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: ٢٦) ثم دافع اقتصادي في المقام الثاني، حيث استطاع أن يرى ويبحث الأحوال الاقتصادية لأهم مدن المنطقة في هذا الوقت، مما أكسبه خبرة عن طريق المرور على هذه المدن المنتعشة اقتصادياً والتي راجت تجارتها في الوقت الذي كان يسود أور الكساد وسوء الأحوال الاقتصادية.

٢ - هجرة إبراهيم إلى كنعان :

يذكر الدكتور أحمد حماد في كتابه «تاريخ اليهود»: ان العامل الاقتصادي يمكن أن نستشفه في روايات سفر التكوين والتي تحدثت عن هجرة إبراهيم وأتباعه وتنقلاتهم، والخلافات التي دارت بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط على المرعى وموارد المياه، والخلاف بين رعاة ابيمالك ملك جزار ورعاة إبراهيم على الآبار ثم مجئ جماعات من أتباع إبراهيم إلى مصر نتيجة تغيير مناطق الرعى، وأدت إلى استقرار قوم إبراهيم بأرض كنعان. ويذكر ان مجئ هؤلاء الأقوام إلى كنعان قبل دخولهم مصر، هيأته لهم الظروف الجغرافية من أحوال المناخ والتي دفعتهم إلى الهجرة^(٣).

(١) حبيب سعد، خليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص ٨.

(٢) رشدي البدرأوى، قصص الأنبياء والتاريخ، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٣) أحمد حماد، مرجع سابق، ص ١٣٠.

وقد ورد في التوراة ذكر هجرة إبراهيم إلى كنعان : " اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك " أنا الذي أخرجك من أور الكلدانيين إلى هذه الأرض لترثها وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً " .
فقد إبراهيم عليه السلام قبيلته البدوية نحو الجنوب سعيًا إلى مراعي أكثر خضرة، وهى أرض كنعان^(١). وكانت حياة السكان فى ذلك الوقت مفتوحة للجميع تهاجر من أجل الماء وكانت كنعان ذات حضارة كبيرة فى جميع المجالات، سواء فى الزراعة أو الصناعة أو التجارة والحياة المعدنية والدينية .

ففى مجال الصناعة :

كان سكان هذه المناطق سباقين فى استخدام صناعة الحديد، وكانت لهم أدوات وأسلحة فتاكة^(٢) وهم الذين ادخلوا السيف المقوس المصنوع من الحديد فى مصر^(٣) وكانت أسلحتهم الأقواس والنبال والرمح^(٤) ووجدت معاصر للزيت والعنب وكانت لهم أعمال هندسية ضخمة تتمثل فى توصيل المياه داخل حصونهم. حيث برعوا فى مشاريع تخزين المياه فى أوقات الحصار عن طريق حفر الأنفاق. وكانت لديهم عربات مطعمة بالذهب وأوتاد لنتشيت الخيام مطعمة بالفضة وسرائر من العاج ومضاجع مطلية بالذهب وأوان وسيوف وكؤوس من الذهب وخشب الأبنوس، واشتهروا بصناعة الزجاج .

أما المعادن: فكانت لهم مناجم حديد مهمة، حيث اكتشفوا معدن الحديد فى أرضهم، وهم الذين اهتموا إلى الجمع بين النحاس والقصدير فى إنتاج البرونز .

وفى الزراعة: كانت أهم مزارعهم الكروم والتين .

أما التجارة فكانت جزءاً لا يتجزأ من الحياة الكنعانية حتى باتت كلمة كنعانى تعنى تاجراً وكانت تصدر أخشاب الأرز والزيت والخمر إلى مصر وكريت واليونان، وتستورد النفائس المصرية وورق الكتابة والمعادن الخام^(٥).

(١) يوسف عيد ، موسوعة الأديان ، مرجع سابق، ص ٩ ، ١٠ .

(٢) أحمد سوسة ، مرجع سابق، ص ١٠٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٥) موسوعة الكتاب المقدس ، دار منهل الحياة ، لبنان ، ١٩٩٣ م ، ص ٢٦٤ .

ويقول العلامة بريستد لدى توضيحه المظاهر الحياتية الحضارية في كنعان في عهد موسى الذي جاء بعد إبراهيم عليه السلام بحوالي سبعمائة عام - فقال: أن قوم موسى عندما جاءوا إلى بلاد كنعان^(١) كانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة نشأت منذ ألف وخمسمائة عام، ومنازل متقنة فيها كثير من أسباب الراحة، وحكومة وصناعة وتجارة وعلم ومعرفة بالكتابة وحضارة وديانة. وقد أحدث الامتزاج مع الكنعانيين تغييرات جوهرية فيهم فغادر بعضهم سكنى الخيام، وشرعوا يبتنون بيوتاً كبيوت الكنعانيين، وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهم في البادية، ولبسوا الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات صوفية زاهية^(٢). ومن هنا يتضح لنا شكل الحياة عصر إبراهيم وملبوساتهم. هذا وقد أظهرت عقود الزواج التي اكتشفت في مدينة نوزي في شمال ما بين النهرين، أن العلاقات التي كانت بين إبراهيم وسارة وهاجر كانت وفقاً للنظم والقوانين التي كانت سائدة في ذلك الوقت في تلك البلاد^(٣). ومن أعظم ما قدمته كنعان للحضارة اختراع الأبجدية الهجائية.

٣- رحلة إبراهيم إلى مصر وأهميتها الاقتصادية في عهده:

تابع إبراهيم عليه السلام هجرته من دمشق إلى حبرون ومكث فيها عدة سنوات، وكثر عبيده وأتباعه وكثر ماله وكثرت أغنامه، وبعد مدة قرر زيارة مصر.

أسباب زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر:

اختلفت الآراء حول أسباب هجرة إبراهيم إلى مصر، فهناك من يرجعها إلى عامل الندرة، وهو رأى ف. ب. ماير الذي قال: إن قحطاً ومجاعة أصابت أرض كنعان فهاجر إبراهيم إلى مصر حيث الخصب والنماء. وتؤكد التوراة هذا الرأي حيث جاء فيها: «وحدث جوع في الأرض فأنحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك؛ لأن الجوع في الأرض كان شديداً»^(٤).

(١) جاء عهد موسى عليه السلام بعد عهد إبراهيم عليه السلام بحوالي سبعمائة عام كما أوضح المؤرخون، سوسة، ص ٥٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١١.

(٣) بطرس عبد الملك وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، ط ١٤، مطبعة الحرية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ١٢.

(٤) تك: ص ١٢ / ١٠.

والرأى الثانى: يرجعها إلى دافع دينى بهدف نشر دعوة التوحيد فيقول، أن وجود حبرون على طريق القوافل بين الشام ومصر، وتوثيق العلاقات بين مصر والشام، جعل إبراهيم يسمع عن مصر وعظمتها وضخامة مبانيها ورقى حضارتها، ولمس ضلال عقيدتهم الدينية وعبادتهم الأصنام، ولعله أضمر فى نفسه زيارة مصر عله يستطيع هداية قومها؛ ومن هذا يمكننا أن نقول أن الدافع وراء هجرات إبراهيم ورحلاته كان دينيًا واقتصاديًا فى نفس الوقت.

فكانت هجرة إبراهيم عليه السلام من الشام إلى مصر، بسبب إمساك السماء عن المطر وجذب الأرض فيها وصعوبة أسباب الحياة لأهله وأغنامه حيث امتنع المطر الذى كان يسقط فى كنعان مكان إقامة إبراهيم فى النصف الثانى من السنة، واحتترقت المحاصيل من حرارة الشمس قبل وقت حصدها ونذر العشب الذى ترعاه المواشى، وكان إبراهيم متقلاً بمسئولية إعالة قطعان الغنم والدواشى الكثيرة التى كان يمتلكها هو وأهله، وأصاب المجاعة التجار والزراع، فتبلورت المشكلة الاقتصادية التى تمثلت فى عنصر الندرة الذى أصاب المنطقة فلم تف الموارد المحدودة حاجات السكان؛ فأصابتهم المجاعة. وشكى الناس إبراهيم وقالوا أن عبادة الله جلبت لهم اللعنة بدل البركة^(١).

وكانت مصر مصدر الخير للعالم فى ذلك الوقت، حيث نهر النيل الذى يفيض عليها بالخصب والزراعة ولعمار. كما كانت تعتمد على نهر النيل الذى كان يدر عليها الماء، وكانت أرضها يغمرها فيضان النيل فيسبب لها الخصوبة الكبيرة^(٢).

ولهذا السبب هاجر إبراهيم إلى مصر بهدف توفير الحياة للماشية، وكانت رأس مال الراعى وكانت مصر تمد يد العون للرعاة المحتاجين؛ لذا قرر إبراهيم الذهاب إلى مصر فى السنوات العجاف التى مرت بالشام بمصاحبة أهله وعشيرته وأغنامه، فكانوا يضعون خيامهم بالقرب من الأراضى المزروعة، ويشترون أغنامًا وحميرا لتساعدهم على استئناف المسيرة مرة أخرى^(٣).

(١) ماير ، حياة إبراهيم ، مرجع سابق، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) المرجع نفسه ، الصاححات نفسها .

(٣) رشاد الشامى ، مرجع سابق ، ٦١ ، ٦٢ . (تك ١٠/١٣) (تك ٣٠/٢١) .

وكانت مصر تتميز في ذلك الوقت بالاستقرار والرخاء في ظل المملكة الموحدة تحت حكم السلالة الثانية عشرة في عهد الفرعون سنوسرت الثاني ١٨٩٧ - ١٨٧٧ وسنوسرت الثالث ١٨٧٢ - ١٨٤٣ ق.م، وكانت مصر تبسط نفوذها السياسي على سوريا وكنعان^(١). وكانت تمثل مصدر ثروة وخير كبير على المنطقة والأقطار المجاورة لها، إذ كانت تجلب الذهب والتوابل من السودان والنحاس الأحمر والفيروز من مناجم طور سيناء والفضة من طوروس وأخشاب الأرز من لبنان، وكانت لها علاقات تجارية قوية مع الأقطار المجاورة، وكانت بلاد كنعان حلقة وصل بين مصر وهذه الأقطار باعتبارها ممراً تجارياً دولياً على الطريق الرئيسي للعالم القديم^(٢). وكانت مصر بالنسبة لكنعان الموئل الطبيعي لهم في حالات القحط للاكتيال منها^(٣).

نتائج رحلة إبراهيم إلى مصر وعائدها الاقتصادي:

كانت نتائج رحلة إبراهيم وقومه إلى مصر مثمرة، عرف الفرعون فيها مكانة إبراهيم من قومه، ومكانته عند ربه؛ فسمح له بالتجول في مصر أينما شاء، وعاد منها محملاً بهدايا فرعون التي خلعها على سارة زوجته، وهي الغنم والبقر والحمير والعييد والإماء والأتن والجمال، بالإضافة إلى هاجر التي أهداها فرعون مصر إلى زوجة إبراهيم؛ فكانت تلك الرحلة من أسباب ثراء إبراهيم وقومه. وتذكر التوراة أن إبراهيم "كان غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب"^(٤). وبهذا يتضح لنا أن إبراهيم عليه السلام اكتملت لديه كل مقومات المفكر الاقتصادي الذي درس البيئة المحيطة به وكيفية افتقارها إلى عوامل الإنتاج؛ فقرر الهجرة حيث كان لابد منها للتغلب على هذه الندرة في عوامل الإنتاج.

والدليل على نجاحه في اجتياز هذه المشكلة الاقتصادية هو تعاظم ثروته ونماؤها حتى تطلب الأمر أن يقوم عليها تنظيم يديرها، فعين عليها اليعازر الدمشقي. ثم لم يقتصره الأمر عند هذا الحد، بل واستطاع أن يقيم مجتمعاً متعاوناً منتجاً يضم كل العناصر التي تكفل له النجاح والاستمرار بما يكفل له بعد ذلك الاستمرار في حمل لواء الدعوة إلى الله عز وجل.

(١) ليلي حسن سعد الدين، أديان مقارنة، مرجع سابق، ص ٤٠، ٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

(٣) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص ٥٧٢.

(٤) تك ١٣ / ٢.

٤ - هجرة إبراهيم إلى جرار ونتائجها الاقتصادية :

تحكى التوراة أنه فى طريق خروج إبراهيم من مصر إلى العراق، أقام زمناً فى جرار بين قادش وشور، وكان فيها ملك يدعى "ابيمالك" وخشى إبراهيم من الملك فى حالة علمه أن سارة زوجته وذلك بسبب جمالها، وقد قيل أنها من أجمل نساء الأرض، فأخبر إبراهيم الملك أنها أخته فلما أرادها الملك رأى فى منامه أنه إذا اقترب منها فسوف يموت فى الحال. فأرسل إلى إبراهيم وعاتبه بقوله أنها أخته، فرد عليه إبراهيم أنها أخته من أبيه فتركها الملك لإبراهيم ودعا إبراهيم له ولأهل بلدته، فأصابهم خيراً كثيراً، فكافأ الملك إبراهيم وأعطاه غنماً وبقرًا وعبيدًا وإماءً وأعطاه أرضاً يتبوأ منها حيث يشاء^(١).

٥ - هجرة إبراهيم إلى دمشق :

تابع إبراهيم عليه السلام سيره حتى وصل إلى دمشق وكان قد كثرت عبيده وغنمه^(٢). ونستطيع القول، بأن هجرة إبراهيم الأولى قد حسنت من ظروفه الاقتصادية بشكل كبير جدًا، حتى أنه اتخذ له مشرفاً أميناً مخلصاً على أمواله وغنمه هو اليعازر الدمشقى وهذا يؤيد الرأى القائل أن الدافع الاقتصادى لا يمكننا إغفاله إلى جانب دعوته الدينية. وقد أقام إبراهيم عليه السلام ربحاً من الزمان فى دمشق، وكثرت ثروته وأتباعه وأعوانه، ثم بدأ يعاود هجراته مرة أخرى .

ويذكر الدكتور أحمد حماد أن قصة إبراهيم التوراتية لا تعدو أن تكون أكثر من قصة التحول من طور البداوة إلى طور الزراعة أو التوق إلى التحول الزراعى والاستقرار فى أرض خصبة لأقوام فضت حياتها كلها رعوية جواله، تجوب الأرض فيما بين الهلال الخصيب من العراق نرقاً حتى حدود مصر غرباً، وهى قصة التوق إلى الاستقرار بعد عناء الحياة الرعوية^(٣).

(١) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) عبد الحميد جودة السحار ، محمد رسول الله ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

(٣) أحمد حماد ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

ثانياً: بناء إبراهيم بيت الله وحكمة الحج ومنافعه الاقتصادية :

ذكرنا من قبل أن إبراهيم عليه السلام كان دائم التنقل، وكان يقيم المذابح ليوزع الثروة على من اتبعه ليقبوا شعائهم فيها، وكانت تقام هذه المذابح فوق قمم الجبال^(١) بعيداً؛ لأن الكهنة في هذه البلاد لم يسمحوا له بغير ذلك، وكان يشاهد ضخامة المعابد فيتذكر معبد مردوك في أور. والمعبد الكبير في بابل وبوابة عشتار الضخمة، ثم معابد بعل في دمشق، ومعابد مصر ومسلاتها في أون ومنف والأهرام ومعابدها، وما بنى في فلسطين من معابد لتحاكى معابد مصر، وكانت توضع بها تماثيل الآلهة المصريين بجانب الآلهة المحلية تعبيراً عن امتداد ونفوذ مصر إلى هذه المناطق، ورأى كيف يفتن الناس بضخامة هذه المعابد وتؤثر في نفوسهم. وهتف نفسه لإقامة بيت كبير لله وأدرك استحالة أن يقيم مثل هذا البيت في أي من البلاد التي مر بها، ولعل هذا الخاطر ظل يؤرقه إلى أن تمت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز التي أمره الله سبحانه وتعالى فيها ببناء بيت الله وهو الكعبة المشرفة، الذي كان موجوداً قبل زمن الطوفان وزال مع الطوفان وكان نقطة الوصل بين السماء والأرض، إذ إن مكانه في الأرض يوجد بموازاة عرش الرحمن في السماء السابعة فجاء أمر الله ببنائه ليكون لهم حرماً وأمناً وأماناً من كل خريف أو عدو أو جذام.

وكان أهل مكة تجاراً، وكان العرب يغيرون بعضهم على بعض، ويسبى بعضهم بعضاً، وقيل أن الآية الشريفة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ١-٤) قيل أنها بفضل دعوة إبراهيم لأهل مكة التي دعا فيها بقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)^(٢) ونتبين منها أمور المعيشة والحياة التي كان يحياها هؤلاء القوم من تجارة خلال العام، حيث أنزل الله فضله عليهم بعد أن مسهم الجوع فأطعمهم، كما آمنهم بعد أن أصابهم الخوف، وكان ذلك بفضل دعوة إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ (البقرة: ١٢٦) فحباها الله بالأمن وكانت من قبل رابية يأتيها السيول عن اليمين وعن اليسار. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥)^(٣) فأمنت من الغارات والحروب ورزقت بالخيرات والثمرات .

(١) رشدی البدراوی ، درجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) محمد بن جرير الطبري ، تفسير ، فكر بيروت ، ١٤٠٥هـ : ج ٣٠ ، ص ٣٠٨ .

(٣) تفسير الطبري، ج ٣٠ ، ص ٣٠٩

وبعد رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد وارتفاع البناء أمر الله إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج فجعل إبراهيم لا يمر يقوم إلا قال: «أيها الناس، قد بنى لكم بيتاً فحجوه» فجعل لا يسمعه أحد ولا صخر ولا شجر إلا قال: «ليبك اللهم ليبك»^(١) فكان هذا نتيجة عمل إبراهيم وإذعانه لإرادة الله التي حلت بالخير على البشرية التي جاءت من أقصى الأرض تلبى الله وتؤدي فريضته، وأصبح الحج إلى بيت الله دلالة على التوحيد وتبادل المنافع والآراء والأفكار والتعاهد على عمل الخير وإقامة روابط الأخوة والمساواة بين الناس وإزالة الفوارق بين الطبقات لبناء مجتمع متوازن وقوى وتوحيد خطاب الأمة جميعاً .

من ناحية أخرى فقد أدى إبراهيم عليه السلام مناسك الحج جميعها التي من أهدافها زيادة الخيرات كما يظهر في تشريع الهدى وهو ما يهدي لبيت الله الحرام من النعم لتتحرر^(٢) فأنمر أداء النحر الاستفادة بجلود الأنعام والبدن^(٣) وأوبارها وأصوافها إلى جانب أكل لحومها فتظهر الحكمة في إطعام الطعام وخاصة للفقراء والمحتاجين .

(١) تفسير الطبري ، ج ١٣ ، ص ٢٣١ .

(٢) انظر محمد بن منظور لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ٣٥٩/١٥ ، وأبي بكر الرازي ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ١٩٩٥م ، مختار الصحاح ، ٢٨٨/١ وقاسم بن أمير على القونوي ، أنيس الفقهاء ، دار الوفاء ، جدة ، ١٤٠٦هـ ، ١٤٤/١ .

(٣) البدنة تطلق على البعير والبقرة وقال الأزهري هي الإبل والبقر والغنم . وقال صاحب المطالع : البدنة والبدن اسم يختص بالإبل لعظم أجسامها .

وللمفسرين في قوله تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ (الحج / ٣٦) ثلاثة أقوال : أحدها أنها الإبل وهو قول الجمهور ، والثاني أنها الإبل والبقر وهو قول جابر وعطاء . والثالث أنها الإبل والبقر والغنم . انظر المطالع على أبواب المنع ١/١٧٥ ، محمد بن أبو الفتح البعلی الحنبلي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠١ - ١٩٨١ .

المبحث الثالث

فلسفة إبراهيم في الدعوة إلى الله والتغلب على مشاكله الاقتصادية

وصف القرآن إبراهيم عليه السلام بأنه أواه حليم^(١) فقد اجتنبه الله بحبه وقربه حتى جعله خليله^(٢) كما أضفى عليه صفة الإخلاص، فكان مخلصاً نبياً ولم يعامله كفرده بل تعامل معه كأمة كاملة^(٣). وتلك الصفات التي نعتها الله تعالى على سيدنا إبراهيم قلما وجدت في بشر فيما عدا رسول الله ﷺ. فكان إبراهيم عليه السلام شاكراً طاهراً مجتنباً وإماماً مهدياً مخلصاً صديقاً أواهاً حليماً وفيّاً منيباً صاحب قلب سليم صابراً وكان أمة. تلك الصفات التي حباه بها الله جعلته مستجاب الدعوة وكانت دعوته لا ترد، يستسقى بها الناس حتى أنها عمت البشرية ولا تزال آثارها باقية حتى زوال العالم.

أولاً: صفات إبراهيم عليه السلام ودورها في إصلاح المجتمع:

١- صفة التوكل على الله والتسليم له:

عندما اجتمع النمرود وأهل بلاده جميعاً على إبراهيم وأضرموا وأججوا النيران وألقوه مكبلاً فيها قال: «اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك» فلم يكن على ظهر البسيطة أحد يعبد غيره في ذلك الوقت وكان توجهه إلى الله بقوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ولم يرض بأنقاذه منها سوى الله الذي حولها له إلى روضة خضراء فكانت سلاماً وبرداً وأماناً ورحمة له وحجه وبرهاناً على الكافرين.

وكانت مظاهر توكله على الله وتسليمه المطلق في إتيان الرزق من عند الله وإيمانه بأن الله هو الرزاق الكريم من أسباب سعة رزقه وكثرة ماله، ويدل على هذا قصة إبراهيم الخليل مع صاحبه التي جاء فيها: كان لإبراهيم صاحباً يعطيه مالا كلما احتاج، وأرادت سارة طعاماً، فطلبت من إبراهيم أن يذهب لصاحبه ويأتي بطعام، فلما خرج إبراهيم ولم يجد صاحبه استحميا أن يعود لسارة بدون شيء، وكان راكبا حماره؛ فمر على بطحاء فملاً خرج منها،

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤).

(٢) قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء/ ١٢٥).

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ (النحل/ ١٢٠).

وأرسل الحمار إلى أهله ونام ، فلما استيقظ وجد طعاما طيبا أعدته سارة فقال لها: من أين لك هذا قالت: من الحنطة التى جئت بها من خليلك - وتقصد صاحبه - فأجابها نعم هو من خليلي - ويقصد من عند الله سبحانه وتعالى - الذى رزقه بفضل حسن ظنه به، فزرعها ونبتت له، وزكا زرعه، فكانت هى أصل ماله الذى جاءه من الله بقلبه السليم وتوجهه الخالص إلى الله الرزاق وكان الناس يأتونه يسألونه فيقول لهم: من قال لا اله إلا الله يدخل ويأخذ، وكان الناس يفعلون ذلك^(١).

ومن هذه القصة يمكن القول بأن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى صاحبه ليعطيه بعض المال لشدة الحاجة على سبيل، الاقتراض وهذا مبدأ اقتصادى لجأ إليه إبراهيم للخروج من مشكلة اقتصادية وهى ندرة النداء. وفى فعل إبراهيم هذا بيان من إبراهيم بأنه كان متيقنا من أن من يعمل بالأسباب ويسلم أمره إلى الله بعقيدة ثابتة فلا بد وأن يعطيه ما يطلبه.

٢ - الطهارة عند إبراهيم وفائدتها على المجتمع:

الطهارة حكمة سامية، ومنفعة عالية، وصفة فطرية، وخصلة مدنية ، وطبيعة جوهرية، خصها الله سبحانه وتعالى لخليله؛ فظهرت طهارته فى الرأس (قص الشارب والمضمضة، والسواك والاستنشاق وفرق الرأس) .

وفى الجسد (تنليم الأظافر وحلق العانة والختان وغسل أثر الغائط والبول بالماء)^(٢). فالغسل يجدد للجسم القوة والنشاط والهمة والإقدام ويذهب أذى الانحطاط والفتور والكسل والخمول ويحفظ الصحة عموما والطهارة الظاهرية تؤدى إلى الطهارة المعنوية^(٣) لذا كان عليه السلام مراعيًا لكل عضو من أعضائه، وقد قال النبى ﷺ: «إن لبدنك عليك حقًا»^(٤) كما ورد فى صحف إبراهيم: على العاقل أن يكون له ساعات؛ ساعة ينجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الطعام والمشرب^(٥).

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، مرجع سابق، ص ١٨٤ .

(٢) ابن كثير ، مرجع سابق، ص ١٩٦ .

(٣) السيد محمود أبو الفضل النوفى، فحصة الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ص ٥٥

(٤) أخرجه على بن ابى بكر الهيثمى، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ ، (٢٣٩ / ٧) .

(٥) المنذرى ، الترغيب والترهيب ، ج ٣ ، مرجع سابق، ص ١٣١ .

وتميز إبراهيم عليه السلام باهتمامه بالبدن السليم، فصالح البدن يؤدي إلى تأدية العمل على أكمل وجه، وهو ضرورة لبناء مجتمع سليم ، وكان إيمان إبراهيم وبقينه بالله وتسليمه العامل المساعد في تحديد الطريق الذي يجب على الفرد أن يسلكه كي يحيا حياة كريمة في ظل علاقته بربه ونفسه ومحيطه .

٣- كمال الإيمان عند إبراهيم:

ذكر الله سبحانه وتعالى إبراهيم بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٧) والمعنى وفى بجميع ما أمره الله به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصحة الأمر القليل ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبيرة عن الصغيرة^(١) وكلمة "وفى" يدخل في نطاقها جميع أمور الطاعة التي بين العبد وخالقه فقد وفى حقوق الله جميعاً في ماله وأهله وقومه جميعاً وكفل حقوقهم ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥)، وهذه الأمور موصلة جميعها إلى خلق إنسان ومجتمع مثالي .

٤- العفة والاكتفاء، والإيثار وأداء الحقوق عند إبراهيم:

كان إبراهيم عليه السلام يأبى على نفسه أن يأخذ شيئاً احتاجه دون مقابل فعندما كان الحثيثون في فلسطين، اشترى منهم حقل ومغارة المكفيلة في حبرون^(٢) ليدفن فيها زوجته سارة^(٣) واشترى المغارة بأربع مائة مثقال^(٤) وقيل بخمسين درهما^(٥).

وكان الحثيثون في ذلك الوقت يتبعون نظام الالتزامات الإقطاعية التي تستلزم بيع قطعة الأرض بأكملها لمن يريد شراءها مع نقل ملكية الشجر معها، وكان إبراهيم يريد شراء المغارة فقط إلا أن "دفرون بن صوحر" صاحب الحقل أراد أن يهبها هدية لإبراهيم لكن

(١) ابن كثير ، مرجع سابق، ص ١٩٥ .

(٢) البلد التي تعرف بالخليل اليوم ، ابن كثير ، مرجع سابق، ص ١٩٩ .

(٣) أحمد سوسة ، مرجع سابق، ص ٢٢٧ .

(٤) ابن كثير ، مرجع سابق، ص ١٩٨ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، مرجع سابق، ص ٢١٢ .

إبراهيم رفض أخذها إلا شراءً فاشترى الحقل كله بأربعمائة شاقل فضة^(١). وبذلك تكون كل مسؤوليات الحقل والتزاماته قد نقلت إلى إبراهيم^(٢).

وحينما دافع إبراهيم عن ملك سدوم وقاتل أعداءه المغيرين عليه، عرض عليه الملك أن يأخذ المغانم لنفسه، لكن إبراهيم رفض أخذ شيء مجيباً إياه حسب ما ورد في التوراة: «رفعت يدي إلى الإله العلي مالك السماء والأرض لا آخذن خيلاً ولا شراك نعل ولا كل ما هو لك، فلا تقول أنا أغنيت أبرام»^(٣) فلم يرض أن يغتنم حقوق الغير ليأخذ كل ذي حق حقه، ومع هذا لم ينس نصيب أتباعه الذين ذهبوا للقتال معه، ويدخل هذا العمل ضمن عدل إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه نبراساً له في توفية العامل والأجير حقه^(٤). وقد سأل إبراهيم عليه السلام : «بم اتخذني ربي خليلاً» قيل له: بأنك تعطي الناس ولا تسألهم^(٥).

وفي أخبار إبراهيم أنه خرج من بابل على حمار له بصحبة ابن أخيه لوط يسوق غنماً ونزل بمكان يسمى "أنقيا" وكانوا يزلزلون كل ليلة، فلما بات إبراهيم في المكان لم يزلزل، فعرضوا المكان عليه ليقم فيه وبذلوا له البذل فأبى وقال: "إنما خرجت مهاجراً إلى ربي" ونزل بالنجف وطلب أهلها أن يهبوا له أرضهم قال : أكره أن أخذها بغير ثمن ودفع إليهم غنيمات كانت معه فحلت البركة في المكان^(٦).

وقيل أنه في طريق خروج إبراهيم من مصر إلى الشام، نزل "السبع" من أرض فلسطين، فحفر فيها بئراً واتخذ هناك مسجداً، فكانت تلك البئر معيناً طاهراً وكانت أغنامهم ترددها، فأذاه أهلها، فخرج منها، وعندما خرج نضب الماء ؛ فندم أهلها على ما فعلوه بإبراهيم فسألوه العودة، فأبى أن يرجع بعد ما أخرجوه منها، لكنه أعطاهم سبع أعنز من غنمه ليوردوها على البئر، فظهرت الماء مرة أخرى، وأصبحت معيناً طاهراً وغرس فيها أثلاً (أى شجر عظيم يشبه الطرفاء)^(٧).

(١) عباس العقاد ، مرجع سابق، ص ٢٣ .

(٢) وليم وهبة ، دائرة المعارف الكتابية، دار الثقافة ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م ، ص ٢٤ ، تك ، ١٧/٢٣ .

(٣) ف.ب.ماير ، حياة إبراهيم ، مرجع سابق، ص ٧٠ ، ٧١ ، و ع / ٢٣، ٢٢ .

(٤) انظر يوسف القرضاوى ، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠٢ م ، ص ٣٩٣ - ٤٠٠ .

(٥) ابن كثير ، ج ١ ، مرجع سابق، ص ١٩٣ .

(٦) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ١ ، مرجع سابق، ص ٣٣١ .

(٧) تاريخ الطبرى ، ج ١ ، مرجع سابق، ص ١٥٠ ، والعقاد ، مرجع سابق، ص ٢١ .

ويتجلى هنا إتصاف إبراهيم بالإيثار، وحب الخير للبشر، حتى مع من آذوه فلم يظن عليهم أن يكون سبباً في إيجاد المياه - مصدر الحياة - لهم مما كان له أثر اقتصادي في حياة أهل منطقة السبع بعد أن كادت ندرة المياه، تقضى عليهم.

ثانياً: مبدأ الزكاة عند إبراهيم وإكرام الضيف :

للزكاة في اللغة معان عدة منها الطهارة إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أى طهرها من الذنوب والآثام. كما قد تأتى بمعنى النماء والبركة. وشرعاً: هى الصدقة المقدرة التى فرضها الشارع فى أموال الأغنياء لمن يستحقونها. وتأتى أهمية الزكاة من كونها أداة مالية هامة، نجدها فى جانب الإيرادات المالية للدولة الإسلامية، كما نجدها فى جانب النفقات وهى بلا شك جوهر السياسة المالية الإسلامية وذات تأثير كبير، اقتصادي ومالى واجتماعي.

والزكاة طهارة للمال بأداء حقه، وهى طهارة للنفس والقلب، وهى بمثابة تنظيم اجتماعي بين حقوق الفقراء الواجبة فى أموال الأغنياء^(١).

وفى هذا الجانب كان عليه السلام يقطع من أمواله وأغنامه، ويقوم بتوزيعها بين الناس، وهذا العمل يتماشى مع المبدأ الذى ننادى به فى أيامنا هذه، وهى تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ونستشهد على هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة: ١٧٧) فكان عليه السلام يساعد الفقراء والمحتاجين ويجزل لهم العطاء.

كما برز جانب إكرام الضيف عند إبراهيم عليه السلام وإطعام الطعام، وقد وردت فى القرآن الكريم والتوراة قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين جاءوه فى صورة بشر حيث أبى أن يضيفهم إلا بنفسه، دليلاً على كرمه الزائد، وقيل أنه حينما وضع لهم العجل الحنيد وقالوا: لا نأكل طعاماً إلا بثمن، فأجابهم أن له ثمناً وهو أن يذكروا اسم الله على أوله ويحمدونه فى آخره، حينئذ نظر جبرائيل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً^(٢).

وقد أكد إبراهيم عليه السلام بإطعامه الطعام وإكرامه للضيف، أساساً هاماً من أسس بناء الدولة المثالية المتكاملة، التى تكفل الفقير وابن السبيل واضعاً أولى لبناتها باعتباره أنه أول من

(١) سعيد سعد مرطان، مرجع سابق، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٢) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج ١، مرجع سابق، ص ١٧٥.

أضاف الضيف^(١). فكان لا يأكل طعامه إلا مع الضيف ، ويمشى لملاقاة ضيفه قرابة ثلاثة أميال^(٢) ولا يجلس إلى الطعام إلا إذا نادى على الرائح والغادى فى الطريق ليجلس معه إلى طعامه^(٣). ويقال أنه أول من ثرد الثريد^(٤).

وكان لبنت إبراهيم أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد من الأضياف^(٥). وقد سئل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف^(٦).

وما فعله إبراهيم عليه السلام هو مما حث عليه القرآن الكريم؛ فقد حث على إطعام المساكين والأيتام والأسرى فجاء قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨) وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥).

وكان إبراهيم يقدم العشر للأحبار، ويتوجه فى كل مكان يذهب إليه ويبنى مذبحة لعبادة الله، وتقديم النذور بعيدا عن تلك الهياكل التى كان يتقرب بها الأحبار لآلهتهم^(٧). وقيل أن إبراهيم قدم العشر لصاحب بيت المقدس ملكى صادق^(٨).

ثالثاً: فلسفة إبراهيم عليه السلام فى الدعوة إلى الله :

مما سبق لاحظنا أن نشأة إبراهيم عليه السلام فى بيت حرفة وتجارة أكسبته خبرة فى البيع والشراء وكذلك فى المفاوضات، مما أثر تأثيراً مباشراً على أسلوبه فى الدعوة إلى الله. وقد أكسبته هذه الخبرة أيضاً، قدرة عظيمة على الاستدلال ويتضح ذلك من رحلته فى البحث عن

- (١) ابن أبي شيبة فى المصنف (٣١٧/٥) ، وابن كثير ، ١٩٩ وصادق مكي ، موسوعة ، ٧ ، مرجع سابق.
- (٢) عبدالحليم محمود ، مع الأنبياء والرسول ، دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٩٩ م ، القاهرة ، ص ١٧٠ .
- (٣) عباس العقاد ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .
- (٤) يقال ثردت الخبز وهو ان تفتته ثم تبليه بمرق ، أحمد بن محمد الفيومى ، المصباح المنير ، ج ١ ، المكتبة العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٨١ ، وهو الطعام المتخذ من اللحم والثريد غالباً لا يكون إلا من لحم وفى الحديث فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، لسان العرب ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .
- (٥) محمد بن فرج القرطبي ، دار الشعب ، الجامع لاحكام القرآن ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ ، (١٠-٣٥) .
- (٦) أخرجه البخارى فى باب سنان الطعام من الإسلام (١٢) ومسلم فى باب جامع أوصاف الإسلام (٣٩) وانظر محيى الدين عطية ، الكشاف الاقتصادى للأحاديث النبوية الشريفة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٨ .
- (٧) ليلى حسن سعد الدين ، مرجع سابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
- (٨) عباس العقاد ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

الحقيقة (البحث عن إله)، ونظره للشمس والقمر والكواكب وأحوالها. لاختيار الرب المستحق للعبادة، ولكن كان البرهان بأفولها أكبر دليل استدل به على عدم صلاحيتها لكى تكون إله معبود أو يستحق العبادة ويظهر ذلك واضحا فى سورة (الأنعام الآيات ٧٥ - ٧٩).

كل ذلك كان له أكبر الأثر فى اختيار الوسيلة المناسبة التى يدعو بها إلى الله. وهى الوسيلة التى كانت تعتمد على التفاوض والاستدلال العقلى، أى أنه كان يدعو بصفة أساسية إلى إعمال العقل الذى من خلاله يستطيع المرء أن يستدل على وجود الإله المستحق للعبادة. فترى أنه فى تحطيمه لتمائيل الآلهة ورده على من قاموا باستجوابه، بأن الفاعل هو كبير الآلهة، وطلب منهم سؤاله (الأنبياء / ٥٩ - ٦٧). فكان هذا استدراج لهم للاعتراف بعجز آلهتهم وأنها لا تنفع ولا تضر فأظهر غيبة عقولهم عندما عبدوا هذه الأصنام من دون الله. وكذلك حاجته للملك الذى ادعى الألوهية، وطلب من إبراهيم عليه السلام أن يبرهن على وجود الله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة / ٢٥٨). فقد استطاع إبراهيم أن يهزم هذا الملك فى تلك المناظرة عن طريق استخدامه للحجة التى كانت من جنب ما برعوا فيه؛ إذ استدل على وجود الله وعلى عجز هذا الملك بقدرة الله عز وجل على تغيير حركة ومسارات النجوم. وحسم القضية والمناظرة مع هذا الملك بهذا الأسلوب الفلسفى؛ وذلك لأنهم كانوا كما ذكر الدكتور محمد بيومى مهران - قوم تتجيم وكانوا يعلمون أن حركة الكواكب قسرية ومنظمة^(١). وكما قال ابن كثير أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه، وأن المقام الأول كان كالمقدمة للمقام الثانى وعجز الملك عن الثانى ينسحب أيضاً على الأول^(٢).

كل هذا وغيره مما ذكر فى القرآن الكريم يعكس عمق فكر وفلسفة إبراهيم عليه السلام، الذى أهله ليس فقط أن يكون داعية إلى الله ونبياً من الأنبياء أولى العزم، وإنما أيضاً هو مفكر اقتصادى ذو فكر وفلسفة متطورة.

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ج ٤ ، ص ١٥٦ .

(٢) ابن كثير ، ج ١ ، مرجع سابق، ص ١٣٥ .

رابعاً: آثار تلبية الله سبحانه وتعالى دعوة إبراهيم عليه السلام على الحياة الاقتصادية في المنطقة:

عندما ذهب إبراهيم عليه السلام بزوجته هاجر وابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع لا ماء فيه ولا أنس ولا حياة، دعا ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧). فاستجاب الله دعوة إبراهيم، وتدفق ماء زمزم بالأرض الجدباء؛ فسقت المياه إسماعيل وهاجر وسقت الأرض، فنبت الزرع، ودبت فيها الحياة بعد العدم، وحامت الطيور حول الماء وجاءها الناس ليسكنوا فيها من كل فج عميق، وأصبحت زمزم معيناً طاهراً فيه شفاء حتى يوم الدين. وقد ذكر الأزرقى أبو الوليد في إسناده «لما دعا إبراهيم عليه السلام ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ استجاب الله له فجعله "مثابة" ورزق أهله من الثمرات فنقل إليهم الطائف، وكانت قرية بالشام وكانت ملجأ للخائف إذا جاءها، أمن، وقد افتخرت تقيف بذلك^(١). وكان العرب يخاف بعضهم بعضاً من الغارات والحروب والقتال، فجاءت دعوة إبراهيم بالأمن والأمان في العيش والاستقرار في الأرض ولباها الله لإبراهيم وأبنائه من بعده^(٢) تكريماً وتشريفاً وتلبية لدعوة إبراهيم عليه السلام، ويظهر ذلك في الآية الشريفة التي وردت في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْنَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ (القصص: ٥٧).

وفي دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قيل أن إبراهيم عليه السلام سأل الله أن يجعل أناساً من الناس يهونون سكن مكة، فلباها له الله سبحانه وتعالى ثم دعوته: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني ويقصد بها النبات والأشجار^(٣).

وكان فضل تلبية الله لدعوة إبراهيم عليه السلام سبباً في إدرار الماء مصدر الحياة، وكثرة النباتات والأشجار اللازمة للزراعة إلى جانب كثرة وتوافد وتزاحم البشر على تلك المناطق، وهي القوة البشرية اللازمة لاستمرار الحياة؛ فأصبح الناس في كل زمان ومكان يحنون لزيارتها فعم المكان الخير والرخاء إلى يوم الدين.

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، مرجع سابق، ص ١٢.

(٢) الطبري، تفسير ج ٣٠، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

(٣) المرجع السابق، ج ١٣، ص ٢٣٤.

الخاتمة

مما ورد في سياق البحث السابق يتضح لنا أن إبراهيم عليه السلام استطاع أن يتغلب على ما واجهه من مشكلات اقتصادية في عهده يمكن تجميعها جميعاً تحت مسمى "تدرة عوامل الإنتاج". واستطاع عليه السلام بما لديه من مقومات وملكات اكتسبها بحكم نشأته وخبرته وهدى الله عز وجل أن يطوع هذه العوامل بما يتناسب وحجم المشكلة الاقتصادية التي واجهها وطبيعتها، حتى استطاع ليس فقط التغلب عليها بل وحقق الرخاء والازدهار لقومه وأتباعه كما ذكرنا من قبل. ويمكننا ذكر النتائج التي توصل إليها البحث في قدرة إبراهيم في معالجة المشكلات التي واجهتها، في النقاط التالية طبقاً للموارد الإنتاجية التي كانت متاحة في عصره:

١- عنصر الأرض :

وفر المراعى لمواشيه من خلال اختياره المراعى المناسبة ولماشيته بل وتغلب على قلتها بكثرة التنقل بين المراعى؛ ليجد متسعاً لماشيته. وحتى يستفيد مما ينطوى عليه كل مرعى من خصائص وميزات .

٢- رأس المال :

استطاع من خلال هجراته المستمرة أن يوفر عنصر رأس المال الذى يستطيع من خلاله خدمة باقى عوامل الإنتاج كما ذكرت التوراة (كما سبق أن أشرنا) أنه عاد من مصر على سبيل المثال بثروة كبيرة من الذهب والفضة والعييد والماشية .

٣- العمل :

استطاع إبراهيم عليه السلام من خلال هجراته وامتلاكه لعنصر رأس المال ودعوته إلى الله عز وجل أن يتوافر لديه العبيد والتابعون لمذهبه، حتى توافرت لديه العمالة الكافية والتي تمكن من النهوض بالحالة الاقتصادية للمجتمع ككل .

٤- التنظيم :

استطاع إبراهيم أن يدير هذه المنظومة من خلال رجال أمناء مخلصين - كما ذكرنا من قبل - مثل اليعازر الدمشقى، واستطاع عليه السلام أن يوفر الاستخدام الأمثل لكل عنصر من هذه العناصر، فكانت عوامل الإنتاج عوامل رقى ونهضة ورخاء بفضل ما امتلكه من

مقومات المفكر الاقتصادي الذي نحتاجه اليوم فهو بحق مفكر اقتصادي... أنشأه الله نشأة اقتصادية، وأمره بالهجرة لأسباب دينية واقتصادية، وكذلك بنى البيت، ووزع الثروات لتحقيق التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع. عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .
وصدق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ . صدق الله العظيم .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- صحيح البخاري ، دار الحديث ، القاهرة .
- ٣- صحيح مسلم ، دار الحديث ، القاهرة .
- ٤- سنن النسائي ، دار الفكر ، بيروت .
- ٥- الكتاب المندس ، دار الكتاب المقدس .

ثانياً: المراجع

- ٦- ابن خلدون ، مقدمة ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- ٧- أبو الحسن، علي الحسيني الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠ م .
- ٨- أبو عمر يوسف البرانمري ، التمهيد ، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب ، ١٣٨٧ هـ .
- ٩- أبي الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ، أجزاء ١-٣ ، بدون تاريخ .
- ١٠- أحمد حداد، تاريخ اليهود، مشروع رؤية جديدة ، القاهرة، ٢٠٠٣ .
- ١١- أحمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ ، العربي للطباعة والنشر ، دمشق ، ط٧ ، بدون تاريخ .
- ١٢- السيد محمود أبو الفيض المنوفى ، نهضة الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .
- ١٣- رشاد الشامي ، اليهود واليهودية في العصور القديمة ، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- ١٤- رفيق أنيس المصرى ، أصول الاقتصاد الإسلامى ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية، بيروت ، ١٩٩٩ م .
- ١٥- سعيد سعد مرطان، مدخل الفكر الاقتصادي في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦ م .

- ١٦- عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- ١٧- عبدالحليم محمود، مع الأنبياء والرسل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م، ط٣.
- ١٨- عبدالعظيم عبدالقوى المنذرى، الترغيب والترهيب، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١٧هـ .
- ١٩- عبدالوهاب النجار، قصص الأنبياء، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ٢٠- عفيف عبدالفتاح طيارة، اليهود فى القرآن، انتشارات الشريف الرضى، إيران، ١٤١٨هـ .
- ٢١- على بن أبى بكر الهيثمى، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربى، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ .
- ٢٢- عماد الدين أبى الفداء ابن كثير، البداية والنهاية، دار الغد العربى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م .
- ٢٣- ف.ب. ماير، حياة إبراهيم، تعريب القمص مرقص داود، مكتبة المحبة، ١٩٨٩م .
- ٢٤- قاسم بن أمير على القنوى، أنيس الفقهاء، دار الوفاء، جده، ١٤٠٦هـ .
- ٢٥- محمد بن أبى الفتح البعلى الحنبلى ، المطلع على أبواب المقنع ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨١م .
- ٢٦- محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .
- ٢٧- محمد بن جرير الطبرى ، تفسير الطبرى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .
- ٢٨- محمد بن فرح القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢هـ .
- ٢٩- محمد وصفى ، تاريخ الأنبياء والرسل ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
- ٣٠- محيى الدين عطية ، الكشف الاقتصادى للأحاديث النبوية الشريفة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨م .
- ٣١- يوسف القرضاوى ، دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ٢٠٠٢م .

ثالثاً : المعاجم ودوائر المعارف:

- ٣٢- أحمد بن محمد الفيومي ، المصباح المنير ، المكتبة العلمية ، بيروت ، بدون .
- ٣٣- أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ١٩٩٥م .
- ٣٤- بطرس عبدالمك وأخرون ، قاموس الكتاب المقدس ، دار مكتبة العائلة ، ط٤ ، مطبعة الحرية ، بيروت ، ٢٠٠١م .
- ٣٥- عبدالله بن أحمد المغلوث ، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل ، مكتبة العبيكان ، ط٣ ، ٢٠٠١م .
- ٣٦- صادق هكي ، موسوعة الأديان السماوية والوضعية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٥م .
- ٣٧- محمد بز منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ٣٨- موسوعة الكتاب المقدس ، دار منهل الحياة ، لبنان ، ١٩٩٣م .
- ٣٩- وليم وهبه بباوى وآخرون ، دائرة المعارف الكتابية ، دار الثقافة ، ط٢ ، ١٩٩٦م .
- ٤٠- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، بدون .